تصدیر عام

التصوف ـ او العرفان ـ نزعة روحیة توهجت فی خاطر الانسان منذ القدم، فکانت شعلة قدسیة فی وجدانه و قبسا نورانیا اتقد فی حناياه، و لیست تلک الشعلة و ذلک القبس سوی اشعة من الحقیقة المطلقة، لعله ان ادرکها یسکن قلبه و یرکن الیها فؤاده، تساوت، فی ذلک الشعور، الانسانیة. جمعاء: فی الماضی و الحاضر، فی الشرق و الغرب، و فی سائر الاجیال و شتی الانحاء و الارجاء، اختلفت الوسائل و تعددت العقائد لکن المنطلق واحد، و الهدف واحد کذلک: «فالبوذی» الذی یَفنی فی نفسه فی حالات «النیر فانا» فی الهند، هو نفسه المتعبد فی هیکله المقدس یحرق البخور، هو الدرویش الغریب الاطوار فی الشرق. و صرخة الصوفی المسیحی الالمانی «اکهارت الشهیرة قائلا: لیس لأیّ مخلوق أن یلفظ کلمة «أنا هو» إلا اللّه وحده، و هذه الصرخة هی صدی لما قال به السراج من قبل: «لا یلفظ أنا إلا اللّه».

و إذا کان التصوف تطوراً للزهد، فإن الزهد وُجد فی سائر الدیانات السماویة و غیر السماویة: و جد فی الزرادشتیة، فی المانویة، وجد فی الفیدا و الاوبانیشاد، فی البوذیة، فی التورات و الإنجیل.

لیس التصوف أو العرفان، الزهد و التقشف فقط، و الإعراض عن مباهج و زخارف الدنیا، و الإنقطاع إلی عبادة اللّه تعالی، و الفناء فی حبه، والاتصال المباشر به دون وسیط، بل هو التعمق فی العلم الفکری الروحانی، و الإرشاد الروحی لتوضیح العوامل التی یتالف منها کیان الإنسان، و معرفة وجوده و مسلکه العقلی و الروحانی الذی یشکّل استمراریة وجوده فی هذا الکون.

التصوف الحقیقی جانب من أخصب جوانب الحیاة الروحیة فی الاسلام لأنه تعمیق لمعانی العقیدة، و استبطان لظواهر الشریعة، و تأمل لأحوال الإنسان فی الدنیا، و تأویل للرموز و الشعائر یهبها قیماً موغلة فی الأسرار، و انتصار للروح علی الحرف، و معلوم أن الروح تُحیی و الحرف یُمیت.

من کلامنا هذا نخلص الی القول بأن التصوف یستند الی ثلاث حقائق:

1. ثنائیة الإنسان: فالإنسان مؤلف من جوهرین: بدنه و نفسه. فبدنه ینتمی إلی هذا العالم المادی فهو مادی مثله، محسوس، کثیف، مظلم، أما نفسه فهی قبس من عالم الملکوت، و إنها روحانیة، منزهة، بریئة، نورانیة، خالدة.

2. هناک حقیقة مطلقة یمکن إدراکها و الإتصال بها، و یکون ذلک نتیجة ریاضات و مجاهدات، و لیس نتیجة عمل عقلی نظری، فالحقیقة مطلقة لا محدودة، أما العقل فمقید بوسائط محدودة.

3. ادراک تلک الحقیقة یکون بالکشف و الذوق و المشاهدة، و یتم ذلک للصوفی بمجاهدة النفس و تنزهها عن أدران الوجود، و الإرتقاء بها عن علائق المادة و لواحقها.

استأثر التصوف و العرفان الاسلامی باهتمام الباحثین قدیما و حدیثا، و کثرت الأبحاث و الدراسات التی تناولته

تاریخاً و دراسة و نقداً، و تباینت الآراء فی حقیقته و فی أثره علی الفرد و الجماعة: أیده باحثون و بارکوه، و رأوا فیه روحاً انبعث فی الاسلام فأحیاه و أذکی جذوة الایمان فی وجدان المسلمین بعد ما خبا ذلک الإیمان ازاء نظریات المتظاهرین بالشریعة، و مناظرات المتکلمین.

و ناهض باحثون آخرون التصوف، إذ رأوا فیه ظاهرة سلبیة نالت من عزیمة المسلمین و أوهنت طموحهم، فخارت القوی و صدئت الهمم.

طبیعی أن تکون للتصوف تلک المساحة من الدراسات، و أن یستاثر بذلک القسط من الجهد، إذ أنه نما و نشأ علی ضفاف الدین. فانصار التصوف و الصوفیة أنفسهم یرون جذور التصوف إعتزارا فی صمیم الاسلام، و یرون أنهم هم المقصودون بالآیات والآحادیث التی تنوه بمرتبة المؤمنین و الصادقین و المجاهدین و المخلصین و... فهم ینسبون التصوف إلی الاسلام، و یرتقون بنسبهم إلی النبی (ص) و أولیائه المعصومین (ع): إنهم ورثة علم الباطن.

أما الذین یناهضون التصوف، فإنهم ینفون أیة صلة له بالإسلام من قریب أو بعید، و یرون فیه بدعة تسربت إلی الدین، إنه صدی الأفکار الدخیلة کالزرادشتیة و المانویة و البوذیة، و ما إلی ذلک من الافکار و النظریات التی دخلت إلی المجتمع الاسلامی ابّان الترجمة، مع سائر العلوم و الفلسفات و الأفکار التی رافقت نشأة الفکر الإسلامی، و صار لها فیما بعد سلطان علی عقول المسلمین و أذهانهم. لکن الحقیقة أن التصوف فی مفهومه الفکری و الممارسة العملیة و المسالک الروحیة التی اعتنقها الصوفیون لیس مصدره الأصیل إلا القرآن الکریم، و السنة المطهرة، ذلک لأنه منذ ظهور الإسلام و الأفکار التی اختص بها متصوفة المسلمین نشأت فی قلب الجماعة الاسلامیة نفسها اثناء عکوف المسلمین علی تلاوة القرآن و الحدیث و إقرائهما.

ولیس التصوف و العرفان وجهة نظر فلسفیة أو علمیة، أو هوساً دینیا أو هروبا من مسئولیات الحیاة الإجتماعیة و الاقتصادیة، بل هو إیمان راسخ فی الحب الالهی و الفناء فیه نتیجة قمع النفس و منعها من الانغماس فی اللذات الجسمانیة و جعلها طاهرة نقیة لتحقیق مشاهدة، أو لقاء الخالق عز و جل.

و بالرغم من أن معظم المؤرخین المسلمین، و بعض المستشرقین قالوا إن الصوفیة حصروا نشاطهم فی عبادة اللّه و التسلیم المطلق لمشیئته. ولکن الواقع أن بعض اهل التصوف ترک آثارا مهمة علی الفکر الاسلامی منهم: الحکیم الترمذی، أبوالقاسم الجنید، الحارث المحاسبی، أبو عبدالرحمن السلمی، سهل بن عبداللّه التستری، عبدالقادر الجیلانی، أبو نصر السراج، الحسین بن منصور الحلاج، أبوبکر الکلاباذی، شهاب الدین أبو حفص عمر السهروردی، أبوطالب المکی، محیی الدین العربی، أبوحامد الغزالی، أبوالقاسم القشیری، أبوعثمان الهجویری، عبدالکریم الجیلی، عبدالرزاق الکاشانی، محمد بن داوود القیصری، و فی عصرنا الحاضر الإمام الخمینی (رض) و غیرهم فهؤلاء تناولوا بعلم و معرفة واسعة الفلسفة الیونانیة و الفکر الاسلامی، و الدین و حاولوا تفسیر الأفکار الفلسفیة و المناهج الأخلاقیة و الروحیة التی اعتمدها أهل التصوف و العرفان فی مسلکهم الدنیوی و الدینی.

و هذه الآثار والدراسات، على وفرتها، و على تباين الآراء و المواقف فيها تندرج فی فئات ثلاث:

1. الفئة الاولی: تلک المؤلفات و الآثار التی وضعها الصوفية أنفسهم، ترجموا فيها أحوالهم، و وصفوا تجاربهم، فتضمنت مواجيدهم و رياضاتهم، مثل شطحات أبی يزيد البسطامی (234 ق) و مؤلفات الجنيد (297 ق) و *الطواسين* للحلاج (309 ق) و مؤلفات الشبلی (334 ق) و *قوت القلوب* لأبی طالب المکی (386 ق) و *الفتوحات المکية* و *فصوص الحکم* لابن العربی (638 ق).

2. الفئة الثانية: هی تلک المؤلفات التی أرّخت للتصوف الإسلامی، و عرضت لمبادئه و مفاهيمه و مصطلحاته، کما أرّخت لأعلامه و رجالاته، فاوردت سيرهم و حکت حکاياتهم و ذکرت أقوالهم، أمثال کتاب *اللمع* لأبی نصر السراج (378 ق) و *التعرف لمذهب أهل التصوف* للکلاباذی (384 ق) و *الرسالة القشيرية* للقشيری (465 ق) و کتاب *کشف المحجوب* للهجويری (465 ق) و *عوارف المعارف* للسهروردی (635 ق).

3. أما الفئة الثالثة: فهی تلک الدراسات التی تضمنت موقفا من التصوف، مناصراً حيناً و مناهضاً أحياناً، سيما فی عصر النهضة مع المجددين أمثال جمال الدين (الأفغانی) و محمد عبده و ابن باديس و غيرهم.

هذه الدراسات، على تفاوت قيمتها عمقاً و شمولاً، لا يلتقی کل منها بحد ذاته بالدراسات الأخری و لايحيط بالتصوف إحاطة وافية، إلى درجة يمکن اعتبارها دراسة اکاديمية تفی بحاجة الطالب فی ذلک المجال، و ذلک من خلال عرض مسائله و قضاياه عرضاً وافياً فی نطاق شامل يذهب فيه إلى اختيار ما يؤهل لاتخاذ موقف من التصوف و العرفان استنادا الى فهمه و معرفة ما يتصل به مع الوقوف على الآراء و النظريات التی تناولته.

استنادا الى کل ذلک، و انطلاقاً من حرصنا على ايجاد مادة بين أيدی طلابنا، مادة تفی بالغرض فی التعرف على التصوف و العرفان الاسلامی: مفهومه، نشأته و تطوره، کان کتابنا هذا، نطمح فيه ما أمکن، إلى أن يکون وافيا بمعالجة المسائل التی تضمنها و شاملا لأهم و ابرزما يتصل بالتصوف و العرفان الاسلامی من نظريات و آراء و مواقف.

و إيمانا منّا بأهمية النص أساساً فی کل دراسة، و فی النظرية الصوفية تحديداً، رتبنا الکتاب على نصوص، و أثبتناها فی أبواب مستقلة، تتيح للطالب الوقوف على الافکار فی منابعها من ناحية، و توفر عليه الرجوع إلى مصادر و مراجع أخری. و قد حوت النصوص المختارة فی کتابنا هذا خصائص و ملامح نخص بالذکر منها ما يلی:

1. وضعت هذه النصوص فی الکتاب على ترتيب تاريخی، و تسلسل زمانی لها و ذلک لحصول الطالب من خلاله على ما أصاب التصوف و العرفان من تطورات و تحولات تاريخية فی مباحثه و مسائله و الآراء الموجودة فی المؤلفات من بداية حدوثها إلى زماننا هذا.

2. اشتمل کل نص مختار من هذه النصوص على بعض الأبحاث الهامة فی التصوف و العرفان بحيث يشکل مجموع هذه المختارات مجموعة کاملة شاملة لأکثر و أهم المباحث المعروضة فی آثار الصوفية و العرفاء مما يعتنون و يهتمون به جدا.

3. قدمنا على لكل نص مختار من هذه المجموعة مقدمة تمهيدية تشتمل على ثلاثة مطالب: أحدها يتضمن شرحا موجزا عن حياة المؤلف و شأنه و موقعه فی تاريخ التصوف و العرفان و ذلک تحت عنوان «حول المؤلف».

والثانی يحوی عرضاً للمؤلفات و للآثار العرفانية للمؤلف و بالخصوص الأثر الذی اخترنا منه النص المذكور فی هذه المجموعة، و بيان منهج تأليفه، و ما له من خواص و أبواب و ذلک تحت عنوان «حول الكتاب» أو «حول الرسالة».

و الثالث يعرّف بالتفصيل و بنحو مباشر النص المختار و يبين فحواه و مطالبه تمهيدا لذهن الطالب حتی يكون على بصيرة من أمره قبل مواجهة النص مباشرة و ذلک تحت عنوان «حول المختار».

4. يجد الطالب القارىء احياناً فی بعض النصوص المختارة شيئاً من الحذف و ذلک عندما نضع ثلاث نقاط متتالية ... و ليس هذا الحذف إلا حسب ما اقتضاه المقام حيث رأينا عدم ذكره أحسن، إما لمجرد الاختصار، و إما لكونه خارجاً عن نطاق المقصود لذلک النص و غيرمتصل به.

5. اكتفينا فی المذكور، بين الهلالين بذكر تاريخ وفاة المؤلفين خاصة، لأن الاختلاف و الإشتباه فی تاريخ ولادتهم أكثر، و ان لم ينتف ذلک فی تاريخ وفاتهم أيضاً. و لكن الالتباس فی هذا اقل، و لذا قد اعتمدنا فی تعيين التاريخ المذكور على أتقن و أدق المصادر و المراجع التاريخية و مع ذلک لا ندعی صحتها جزماً.

وختاماً آمل أن نكون قد وفقنا فی هذا الكتاب إلى ما رمينا إليه من اختيار أحسن وأهم و أنسب نصوص صوفية و متون عرفانية، و وضعها و تدوينها على ما ينبغی و يليق بدراستها للطلاب فی الجامعات والكليات بحيث تعطيهم أصول التصوف و العرفان و مبانيهما الدينية من القرآن و السنة، و ما تعلق بهما من تفاسير و استنباطات الصوفية و العرفاء فی اطارهما، و ما نطقوا به من مصطلحات و مفردات و تعابير بحيث تُشوّق الطالب و تشجّعه على مراجعة المصادر الاصلية نفسها، و الأخذ بالأصول و الجذور من المؤلفات العرفانية مباشرة. واللّه ولی التوفيق.

هادي وكيلي
شوال ۱۴۲۴